(١١) إبراهيم بن أدهم[١]

ذكر إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه:

كان إبراهيم رحمه الله متعيّنًا في وقته، صدّيقًا في زمانه، حجَّةً وبرهانًا في دورانه، وله في أنواع معاملات الحقائق حظٌّ تامٌّ، ونفعٌ عامٌّ، مقبولاً بين الأنام من الخواصِّ والعوامِّ.

ولقي جماعةً من المشايخ، وصحب أبا حنيفة.

وقال الجنيد رحمه الله: مفاتيحُ هذه العلوم إبراهيم.

دخل على أبي حنيفة يومًا، ونظر إليه الأصحابُ بنظر الحقارةِ، فقال أبو حنيفة رحمه الله: هو سيِّدُنا. فقيل: وبأيِّ شيءٍ بلغَ هذا المقام؟ قال: لأنَّه مشغولٌ بخدمة ربِّه، وأنتم بخدمة أبدانكم.

وكان من قصّته أنه كان مَلكًا في مدينة بلخ إحدى مدن خراسان، وكان طرفٌ من العالم تحت حُكمه، وكان إذا ركبَ تقدّم قدّامَهُ ويُؤتى خلفه أربعون دبُّوسًا من الذهب.

قيل: كان نائمًا على سريرِ السلطنة، فاهتزَّ السقفُ كأن شخصًا يدورُ عليه،

---

(١) التاريخ الكبير ١/ ٢٧٣، طبقات الصوفية ٢٧، حلية الأولياء ٧/ ٣٦٧، و٨/ ٣، الرسالة القشيرية ٣٥، مناقب الأبرار ٢٢، صفة الصفوة ٤/ ١٥٢، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢١٢، الأنساب ٢/ ٢٨٤، مختصر تاريخ دمشق ٤/ ١٧، تهذيب الكمال ٢/ ٢٧، سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٨٧، مرآة الجنان ١/ ٣٤٩، الوافي بالوفيات ٥/ ٣١٨، فوات الوفيات ١/ ١٣، البداية والنهاية ١٠/ ١٣٥، طبقات الأولياء ٥، نفحات الأنس ٦٠، تهذيب التهذيب ١/ ١٠٢، الطبقات الكبرى للشعراني ١/ ٦٩، الكواكب الدرية ١/ ١٩٥، شذرات الذهب ١/ ٢٥٥.

فصاح عليه، وقال: من أنت؟ قال شخصٌ من السقف[١]: إنّي رجلٌ قد ضاعَ لي جملٌ، فأطلبُهُ. قال إبراهيم: يا جاهل، كيف تطلبُ البعيرَ على السقف؟ قال الشخص: يا غافل، وأنت كيف تطلبُ اللهَ تعالى على السرير، وفي الفراش الحرير؟ فهابه ذلك[٢] الكلام، ووقع في قلبه حريقٌ، وما نام باقي الليلة، فلمّا أَصبح جلس على سريره متفكّرًا متحيّرًا، واجتمع عليه أركانُ دولته، وجلس كلٌّ في مكانه، واطمأنَّ المجلسُ بهم، وقام الغلمانُ والمماليك صفوفًا بين يديه، إذ دخل عليه رجلٌ في غاية المهابة، حتى لم يقدرْ أحدٌ من الحاضرين أن يقول له: من أنت؟ ومن أين تجيء؟ وعبر إلى إبراهيم، ووقفَ بين يديه عند سريره، فقال له إبراهيم: ماذا تريد؟ قال: أريدُ أن أنزلَ في هذا الرباط. قال إبراهيم: أنت مجنون! ليس هذا رباطًا؛ بل هو بيتي. قال الرجل: هذا قبلَكَ لمَنْ كان؟ قال: لأبي. قال: وقبله؟ قال: لجدّي. قال: وقبله؟ قال: لفلان. وقال: وأين هم؟ قال: ماتوا ومضوا. قال: أو ليس الرِّباط كذلك يجيء شخص ويذهب آخر؟ قال هذا الكلام وغاب عنهم ـ قيل: هذا كان الخضر عليه السلام ـ فازداد إبراهيمُ رحمه الله حزنًا على حزنٍ، وغمًّا على غمٍّ، ثم ركبَ وقصد إلى الصيد، وقال: قد وصلَ إليَّ اليوم شيءٌ، ولا أدري كيف يكون مآلُه؟ فركب ودخلَ الصحراءَ، وكان يتردّدُ هائمًا تائهًا، لا يدري أين يروح، وماذا يفعل، ووقعَ من العسكر في ناحيةٍ مُنفردًا حتى سمعَ صوتًا يقول له شخصٌ: انتبه. فتغافلَ عنه، فسمع ثانيًا، فتغافل عنه، ثم سمع ثالثًا، فعبر من ذلك، فسمع رابعًا: انتبه قبل أن تنبَّه. فتحيَّرَ إبراهيمُ رحمه الله، وازداد تحيُّرُهُ إلى أن ظهرَ قدّامه غزالٌ، أراد أن يقصدَهُ، فأنطقَ اللهُ الغزال، وقال: أرسلوني لأن أصيدَكَ؛ فأنت لا تقدرُ على أن تصيدني، ثم سمع من قَرَبُوسَي[٣] السرج: يا إبراهيم، ما لهذا خُلقت، ولا بهذا أُمرتَ. فأعرضَ عن الغزال، وازدادَ قلقُهُ وشوقُه، ولمّا أرادَ أن يتمَّ

---

(١) في (أ): شخص في السطح.

(٢) في (ب): فهابه ذكر الكلام.

(٣) القَرَبوس: حِنْو السَّرج، أي قسمُهُ المقوّس المرتفع من قدّام المقعد، ومن مؤخّره.

أمرَه سمعَ مثل ذلك الصوت في جيبه، وانفتح على قلبه بابُ أسرار المُلك والملكوت[١]، وتابَ إلى الله تعالى توبةً نصوحًا، ونزل عن الفرس، وتوجَّهَ إلى جانبٍ، وذهب حتى وصلَ إلى راعي أغنامٍ له، وكان عليه لبّادٌ، وعلى رأسه قَلَنْسُوَةٌ من الصوف، فإذا هو من مماليكه وغلمانه، فأعطاه ما كان عليه من الثياب الفاخرة، والتاجَ المُعرَّق، ووهبَ له جميعَ تلك الأغنام، وأخذَ منه اللِّباد وقلنسوةَ الصوف، فتعجَّبَ من حاله جميعُ مَنْ في عالم الملكوت؛ إذ هو خلعَ عنه الثيابَ النجسة المُزخرفة الدنيوية، ووضعَ على رأسه تاجَ الفقر، ولبسَ حلَّته.

وكان يدورُ في الجبال والصحارى مُتولِّهًا متحيِّرًا، ويبكي على جرائمه وذنوبه وينوح، حتى وصل إلى مدينة تُسمّى مَرو الرُّوذ[٢]، وكان هناك جسرٌ على نهرٍ، فلمّا وصلَ إبراهيمُ إلى الجسرِ، وأرادَ أن يعبرَ، رأى رجلاً قد وقع من الجسر، فقال إبراهيم: اللهم احفظْهُ. فالله تعالى حفظه وأوقفَهُ في الهواء، حتى ذهبَ إليه جماعةٌ وأمسكوه، وتعجّبوا من حال إبراهيم.

ثم رحلَ إلى نيسابور، وطلبَ موضعًا خاليًا ليشتغل بعبادة الله تعالى، فأرشدَهُ اللهُ تعالى إلى مغارةٍ هناك مشهورةٍ، فسكنَ فيها تسع سنين، والله تعالى يعلم بأحواله وطاعاته وعباداته في تلك المغارة ليلاً ونهارًا.

وكان يصعدُ الجبلَ يوم الخميس، ويجمعُ حملاً من الحطب، وينزلُ به غداة يوم الجمعةِ ويبيعه، ويشتري بثمنه ما يسدُّ جوعتَهُ من القوت، ويفرّقُ نصفَ ذلك على الفقراء والمساكين، ويذهبُ بالنصفِ الآخر إلى المغارة، وكان يصوم ويُفطر على ذلك الطعام، ويقنع به إلى الجمعة الأخرى.

نقل أنه كان في تلك المغارة ليلةً من ليال الشتاء، وكانت في غايةِ البرودة، وقد حصلَ له احتياجٌ إلى الغُسل، فاغتسلَ بالماء البارد من الساقية بعد أن كسرَ

---

(١) في (ب): أسرار الملك والسلطنة.

(٢) مرو الرُّوذ: مدينة قريبة من مرو، بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم، فلهذا سميّت بذلك. فالروذ بالفارسية النهر. انظر معجم البلدان.

الجمدَ ودخل فيه، وبردَ برودةً عظيمةً إلى وقت السحر، وكادَ أن يهلكَ، وكان يشتهي دفئًا أو نارًا[١]، فهو في ذلك الحال إذ رأى فروةً على جسده، وذهبَتْ عنه البرودة، ونعست عيناه إلى طلوع الشمس، فلمّا أضاء العالمُ نظر فإذا الفروة التي لبسَها تنينًا عظيمًا مهيبًا، وكلٌّ من عينيه كأنَّها قصعةٌ مملوءةٌ من الدم، فهابَهُ وقال: إلهي، أرسلتَ إليَّ هذا في صورة اللطف، وأراه الساعةَ في صورة القهرِ ولا أطيقه، فذهبَ التنينُ في الحال بعد أن تمرَّغَ لديه في التراب وغاب.

ونقل أنه حين اطّلَع عليه الناس، فرَّ من المغارة، وقصدَ مكّة شرّفها الله تعالى وعظّمها، وبعد زمانٍ كثير دخلَ الشيخ أبو سعيد المَيْهَني[٢] رحمه الله في تلك المغارة، وقال: سبحان الله، لو كانت هذه المغارةُ مملوءةً من المسك ما فاحَتْ مثلَ ما تفوحُ الآن بسبب عبادة فتًى فيها، فكأنَّها امتلأتْ رَوْحًا وراحةً.

وقصدَ إبراهيم البادية من خوفِ الشُّهرة، ووصلَ إليه شخصٌ من أكابر الدِّين، وعلّمه اسمَ الله الأعظم، وهو كان يذكرُ اللهَ تعالى، ويدعوه بذلك الاسم، فلقي الخضرَ عليه السلام، فقال له: يا إبراهيم، كان أخي إلياس الذي علّمكَ الاسم الأعظم. ثم جرى بينه وبين الخضر محادثاتٌ ومكالماتٌ كثيرة.

وكان شيخُهُ الخضرَ، فإنه أرشدَهُ أولَ الأمرِ كما مرَّ بإذن الله تعالى.

وقال: حين كنتُ متوجِّهًا إلى بيت الله تعالى الحرام، وصلتُ إلى ذات العرق[٣]، وجدتُ هناك سبعين إنسانًا عليهم المرقعات، ماتوا كلُّهم، والدمُ يجري من أفواههم وآذانهم، فدرتُ حولهم، فإذا في واحدٍ منهم رمقٌ من الحياة، قلتُ له: ما هذه الحالةُ يا فتى؟ قال: يا بن آدم، عليك بالماء والمحراب لا تبعدْ منه غايةَ البُعد لئلا تُهجر، ولا تقربْ أيضًا غايةَ القُرب لئلا تتعب، لا ينبغي لأحدٍ أن يجترئَ ويتهجَّمَ على بساطِ السلاطين، افزع ممّن

---

(١) في (ب): يشتهي دفءًا نارًا.

(٢) في الأصل: أبو سعيد المهنوي. وانظر ترجمته صفحة ٧٤٩.

(٣) ذات عرق: مَهَلُّ أهل العراق، وهو الحدُّ الفاصل بين نجد وتهامة. وقيل: عرق جبل بطريق مكة، ومنه ذات عرق. معجم البلدان (عرق).

يقتلُ أولياءَه وأحبّاءَهَ الحُجّاجَ له مثلَ قتلِ كفّار الروم في الغزوات، افزعْ من غنيٍّ يقتل بسيف الاستغناء جماعةَ المسلمين كما تشاهد. ثم قال: كنّا جماعةً من الصوفية، قصدنا أن ندخلَ الباديةَ على طريق التوكُّلِ، وعزمنا أن لا نكلّمَ أحدًا، ولا يكونَ لنا فكرٌ ولا ذكرٌ غيرَ الله، ولا حركةٌ ولا سكونٌ إلاّ له تعالى، ولا نلتفتُ إلى غيره، فقطعنا البادية، فلمّا وصلنا[١] إلى ميقاتِ الإحرام استقبلنا الخَضرُ عليه السلام، ففرحنا به، وقلنا: الحمدُ لله الذي جعلَ سفرنا مُباركًا، ووصل الطالبُ إلى المطلوب، فإنه استقبلنا شخصٌ مثلُ الخضر عليه السلام. فنُودينا في أرواحنا: يا جماعة المُتكلِّين المُدَّعين، أما كان شرطُكم وعهدُكم[٢] أن تنسوا غيري لا تلتفتوا إلى سواي، فاشتغلتم الآن بغيري، حقًّا عليَّ أن أُريقَ دماءكم بسيف الغيرة، وأهلكَكُم في البادية، ثم أصالحُ معكم، فالفتيانُ الذين تراهم كلُّهم هم المعاتبون بهذا العتاب، يا بن أدهم، فإن كنتَ أهلاً فادخلْ في هذا الطريق، وإلاّ فأخرجْ نفسَك منهم. فتحيّر إبراهيمُ من هذا الشأن العظيم، ثم سأل من هذا الشخص: كيف أنتَ باقٍ فيما بينهم؟ قال: قيل لي: إنّك ما وصلتَ بعدُ إلى مراتبهم، وأنت نيءٌ حتّى تنضجَ، فإذا نضجتَ نُدخلُكَ في دائرتهم. قال هذا الكلام، وتُوفّي إلى رحمة الله تعالى

نقل أنه رحمه الله قطعَ البادية أربع عشرة سنة بالصلاة والخضوع والخشوع إلى أن وصل إلى قريبٍ من مكّة، وشيوخُ حرمِ مكّة شرّفها الله تعالى علموا بمقدمه، فاستقبلوه، وهو خرجَ من القافلة لئلا يعرفَهُ الناس، فوصل إليه بعضُ خدّامِ الشيوخ، وقال له: إبراهيمُ بنُ أدهم قريب؟ فإنَّ مشايخَ الحرم الشريف خرجوا استقبالاً له. فقال إبراهيم: وما يطلبون من ذلك الزنديق؟ فصفعه الخادمُ. وقال: بل أنت زنديق، مَنْ يستقبلُه مشايخُ الحرم كيف يكون زنديقًا؟ فلمّا عبروا عنه، قال في نفسه: أردتَ استقبالَ المشايخ، فقيل لك: زنديق، وصُفعت، الحمد لله على أن رأينك بمرادي.

---

(١) في (ب): ووصلنا.

(٢) في (ب): شرطكم ووعدكم.

ثم دخل مكّة شرّفها الله تعالى، وسكنَ بها، وكان يتقوَّتُ من كسبِ يده، وكان كسبه من الحصد، وحفظ[١] البساتين وغيره.

ونقل أنه لمّا خرج من بلخ قد بقي له ابنٌ رضيع، فكبرَ وسألَ من أُمِّه أحوالَ أبيه، وكان يطلبُهُ ويشتاقُ إليه، وأمُّه كانت تقصُّ عليه حكايته، وما جرى عليه، وقالت: الحاصلُ أنّه ضاعَ أبوك مدّةً، ثم سمعنا أنَّه ساكنٌ بمكّة شرّفها الله تعالى. فابنه قصدَ زيارة الكعبة، ونادى في مدينة بلخ: إنّ من يريدُ الحجَّ فليتهيَّأ للرواح إليها. فجاء إليه أربع مئة، فأعطى الجميعَ الزادَ والراحلة وسائرَ ما يحتاجون إليه في الطريق؛ لعلّه يصلُ إلى أبيه بعد طولِ الانتظار، فدخلَ مكّة، وجاء إلى باب المسجد، والتقى بجماعةٍ لبسوا المرقعة، فسأل منهم: هل تعرفون إبراهيم بن أدهم؟ قالوا: نعم، وله علينا حقُّ النعمة؛ ولكن قد ذهبَ لطلب الطعام. فخرج ابنُهُ إلى البطحاء[٢] في طلبه، فرآه حافيًا، وقد حمل حطبًا، غلبَهُ البكاءُ، ولكن اختفى عنه، وأمسك نفسَه وتبعَهُ[٣]، فدخل السوق، ويقول: من يشتري الطَّيِّبَ بالطيِّب؟ ـ أي الحلال بالحلال ـ فاشترى منه رجلٌ خبّاز بخبيزات، وذهب بها إلى أصحابه، وخافَ إن يُظهرَ نفسه عليه أن يفرَّ منه، فذهب إلى أمِّه ليدبِّر معها أنه كيف يلتقي به، فأمرته أمُّه بالصبرِ إلى تمامِ الحجِّ، وإبراهيم رحمه الله وصّى أصحابَه، وقال لهم: لا تنظروا إلى وجوهِ الصبيان والنساء في الطواف. فلمّا شرعوا في الطواف، إذ رأى إبراهيمُ صبيًّا صبيحَ الوجه قد استقبله، فنظرَ إليه، فتعجَّبَ أصحابُه منه، وبعد الفراغِ من الطواف، قالوا له: رحمك الله، نهيتنا عن النظرِ إلى الصبيان والنساء، وأنت نظرت إلى صبيٍّ حسنِ الوجه مليح! قال: علمتم ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لمّا خرجتُ من بلخ[٤] كان لي ابنٌ رضيع، ظنّي

---

(١) في (أ): من الحطب وحفظ.

(٢) بطحاء مكة: هي ما حاز السيل، من الردم إلى الحنّاطين يمينًا مع البيت. وليس الصفا من البطحاء. معجم ما استعجم ١/ ٢٥٧.

(٣) في (ب): وأمسك ريقه وبلعه.

(٤) في (ب): لمّا حضرت من بلخ.

أن الصبيَّ الذي نظرتُ إليه هو ابني. ففي اليوم الثاني ذهبَ شخصٌ من أصحابه طالبًا لقافلةِ بلخ، فصادفَ خيمةً من الديباج، وفيها كرسيٌّ، وذلك الصبيُّ جالسٌ عليه، وحولَ الخيمةِ جماعةٌ من مماليكه وغلمانه، وهو مشغولٌ بتلاوة القرآن ويبكي، فاستأذنَ الدخول عليه، فدخل وسلّمَ عليه، وقال: من أين أنتم؟ قال الصبيُّ: نحن من كورة بلخ. قال له: من أبوك؟ فبكى وطبق المصحف، وقال: ما رأيتُ أبي إلاّ الأمس، ولا أعلمُ أنّه أبي أم لا، وأخاف أن يفرَّ منّا؛ فإنّه هربَ منّا من زمان. قال: وما اسمه؟ قال: إبراهيم بن أدهم بن منصور. فذهب به الرجل إلى إبراهيم رحمه الله، وتبعته أُمُّه، وكان إبراهيمُ جالسًا مع أصحابه عند الركن اليماني، فرأته امرأتُهُ، وفني صبرُها، وصاحت وقالت: يا ولدي، هذا هو أبوك الذي فرَّ من أهله وولدِهِ وعياله وسلطنته وماله. وبكت، وبكى الصبيُّ والناس حتى ظهر فيهم ضجيجٌ، وغُشي على ابنه، ثم لمّا أفاقَ، سلّم على أبيه، فردَّ الجوابَ، وأجلسه في حِجْرِهِ، وقال: على أيِّ دين؟ قال: على دين الإسلام. قال: الحمدُ لله. قال: هل قرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: الحمد لله. قال: هل تعلَّمتَ شيئًا من العلم وآداب الإسلام[1]؟ قال: نعم. قال: الحمد لله. فأراد إبراهيم أن يفارقَهم ويذهبَ من عندهم، وهو قد أمسكَ بذيل أبيه، وما كان يتركُهُ، فنظر إبراهيمُ إلى السماء، وقال: إلهي، أغثني. ففي الساعة توفّي ابنُه، وهو في حِجْره، فقيل له: كيف هذا الشأن؟ قال: لمّا أخذتُهُ في حِجْري، وتحرَّكتْ محبَّتُهُ في قلبي، نُودي في سرّي: يا إبراهيم، تدَّعي محبَّتَنا، وتحبُّ معنا غيرَنا، وتُوصي أصحابَكَ أن لا يَنظروا إلى الصبيان والنساء، وأنتَ تعلَّقتَ بصبيٍّ وامرأةٍ! فدعوتُ الله تعالى وقلت: يا ربَّ العزة، أغثني، فإنْ شَغلتني محبَّتُهُ عن محبَّتك فأمتني أو أمته، فاستُجيبَ دُعائي في حقِّه. فإنِ اعترضَ على ذلك شخصٌ، فنقول: ليس هذا بأعجبَ وأغربَ من ذبحِ إبراهيم النبيِّ عليه السلام ولدَهُ البارَّ الكريم.

---

(١) في (أ): من العلم والأدب والإسلام.

أقول: وقد وردَ في بعضِ الأخبار أنَّ إبراهيم بنَ أدهم حيثُ شاهدَ هذا الحال أنشد هذين البيتين:

هجرتُ الناسَ طُرًّا في هَواكا وأيتمْتُ العيالَ لكي أَراكا
فإنْ قطّعتني في الحُبِّ إرْبًا لَمَا حَنَّ الفُؤادُ إلى سِواكا

والله أعلم.

ونقل أنّه قالَ: كنتُ أطلبُ الفرصةَ في كثيرٍ من المواضع في الليالي حتى أجدَ الحرمَ خاليًا، وأسألَ الله تعالى حاجةً، حتى وافيتُ ليلةً ماطرةً مظلمةً، فطفتُ بالبيت، ثم تعلّقتُ بالحلقة، وطلبتُ من الله تعالى العصمةَ من الذنوب، نُوديت: يا إبراهيم، تسألُ العصمةَ[1]، والناسُ كلُّهم يطلبونها، فإنْ بذلتُ لهم ولك العصمةَ، فإين تذهبُ بحارُ مغفرتي ورحمتي؟ ثم قلتُ: اللهم، اغفرْ لي ذنوبي، نوديت ثانيًا: يا إبراهيم، اسألْ في هذا المقام للخلقِ لا لنفسك، واذكرِ الخلقَ ولا تذكرْ نفسك، واتركْها حتى يذكرَها غيرُكَ في حضرتنا.

وكان يقول في مناجاته: إلهي، الطبقاتُ الثمانية للجنة قليلةٌ عليك في جنب إكرامِك إيّاي، وفي جنب محبَّتي إيَّاك، وفي جنب أُنسي بذكرك، وفي جنب فراغي وقتَ تفكري فيك وفي عظمتك.

وقيل: وكان عامّةُ دعائه: اللهم، انقلني من ذلِّ معصيتك إلى عزِّ طاعتك.

وكان يقول: إلهي، من عرفَكَ فلم يعرفك، فكيف حالُ من لم يعرفك؟

نقل أنه قال: اجتهدتُ إحدى عشرة سنة[2]، ثم سمعتُ نداءً: يا إبراهيم، كن عبدًا فاسترح ـ يعني: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

وسُئل: ما أصابك حتى تركتَ السلطنةَ والمملكة؟ قال: كنتُ جالسًا على السرير، جئتُ بمرآةٍ في حذاء قلبي، ونظرتُ فيها رأيت أن القبرَ منزلي، وليس

(١) في (ب): تشاء العصمة.
(٢) في (أ): اثنا عشر سنة.

فيه أنيس لي، ورأيتُ سفرًا طويلاً، وما كان لي زادٌ، ورأيتُ السلطنةَ عاجلةً ولا حجَّةَ لي، لا جرمَ بردَ فؤادي عليها.

قيل: لمَ هربتَ من خراسان؟ قال: لأنّه كثيرًا ما كان يُقال لي: كيف كنت البارحة؟ وكيف حالك؟

قيل له: لم لا تخطبُ امرأةً؟ قال: فلو طلعَ من يدي[1] لطلّقتُ نفسي، فكيف أُعلِّقُ غيري عليَّ؟

قال: الفقيرُ إذا تزّوجَ فقد جلسَ في السفينة، وإذا ولدَ له ولدٌ غرق.

نقل أنه رأى فقيرًا يَئنُّ من الفقر، قال: لعلَّ الفقرَ حصل لك بلا ثمن؟ قال: وأنت اشتريتَ الفقر؟ قال: نعم، بملك بلخ، وبعدُ هو رخيص.

حكي أنه جاء إليه شخصٌ بألف درهم، قال: لا أقبل شيئًا من الفقراء. قال الشخصُ: أنا غنيٌّ. قال: تُريد أن يكون لك أكثرُ ممَّا في يدك؟ قال: نعم. قال: ارفعْ دراهمَك؛ فإنَّكَ رئيسُ الفقراء.

وقال: أوحشُ المواضع عندي موضعٌ تعرفونني فيه؛ لأنَّ الناس إذا عرفوني فيه لا بدَّ أن أهرب.

وقال: نحن طلبنا الفقر فرُزقنا الغنى، وقومٌ طلبوا الغنى فرُزقوا الفقر.

قيل: جاء إليه شخصٌ بألفي درهم، فما قبل، وقال: تُريدُ أن تمحوَ اسمي من جريدة أسماء الفقراء بهذا القدر من الدراهم؟!

ونقل عنه إذا وردَ عليه واردٌ من الله تعالى كان يقول: أين الملوكُ حتى يَنظروا إلى هذا الشأن، ليحصلَ لهم عارٌ من ملكهم؟

قال: ليس بصادقٍ من طلب الشُّهرة.

وقال: الإخلاصُ صدقُ النيّة مع الله تعالى.

وقال: مَنْ لم يجدْ قلبَه حاضرًا في ثلاثة مواضع، فليعلمْ أنّه علامةٌ على

(١) فلو طلع من يدي: أي لو استطعت.

انغلاق الباب عليه؛ الأول: وقتَ قراءة القرآن، والثاني: وقتَ الذكر، والثالث: إذا كان في الصلاة.

قال: علامةُ العارفُ أن يكون غائبًا عنه[١]، متفكّرًا في أكثر الأوقات، وأكثرُ كلامه المدحُ والثناء على الله تعالى، وأكثرُ أعماله الطاعات، وأكثرُ نظره في لطائف صُنع الله تعالى وقدرته.

وقال رأيتُ حَجَرًا في طريقٍ مكتوبًا عليه: اقلبْ واقرأ. قال: قلبتُ وقرأت، فإذا كتابته: إذا لم تعملْ بما تعلم[٢]، فكيف تطلبُ ما لا تعلم.

وقال: أشقُّ الأشياء على هذا الطريق مفارقةُ الكتاب، حيث أمروني بترك مطالعته.

وقال: أرجحُ الأعمالِ في ميزانك غدًا أنَّ هذا اليومَ ثقيلٌ عليك ـ أي بسبب الطاعة.

وقال: ينبغي أن يرتفعَ من قلب السالك ثلاثُ[٣] حُجبٍ لينفتحَ عليه بابُ السعادة؛ الأول: لو أُعطي الدنيا والآخرة على سبيل المُلك لما فرحَ به، لأنّه إن فرحَ بمخلوقٍ فهو حريصٌ بَعْدُ، والحريصُ محروم. والثاني: لو كان له مُلك الدنيا والآخرة وأُخذ منه لا يحزن به، فإنَّ الحُزن على ما فاتَ سخطٌ، والساخطُ مُعذَّبٌ. والثالث: أن لا ينخدعَ بمدحِ أحدٍ، فإنَّ مَنْ ينخدعُ بالمدحِ همَّتُهُ حقيرةٌ، وصاحبُ الهمَّةِ الحقيرة محجوبٌ، إذ ينبغي في هذا الطريق همَّةٌ عالية.

نقل عنه أنه قال لشخص: يُعجبك أن تكون من الأولياء؟ قال: نعم. قال: لا ترغبْ في الدنيا والآخرة مقدارَ ذرَّةٍ، وتوجَّه إلى الله تعالى بالكلّية، وأَفرغْ قلبَك عمّا سوى الله تعالى، وكُلْ من الحلال، وليس لك صيامٌ بالنهار، ولا قيامٌ بالليل[٤].

---

(١) أي غائبًا عن نفسه.

(٢) في (أ): مكتوبًا عليه: اقلبني انفعك. فقلبتُهُ، إذا عليه: أنت بما تعلم ما تعمل..

(٣) كذا في (أ) و(ب).

(٤) في المترجم المطبوع (٣٠١): وكل من الحلال، ولا حرج عليك ألا تقوم الليل أو تصوم النهار.

وقال: لا يبلغ أحدٌ نهايةَ صفاتِ الرجال بالصلاة والصيام والجهاد والحجِّ، ولكن يبلغُ بأن يريق في حَلْقِهِ الحلال.

قيل له: هنا شابٌّ صاحبُ وجدٍ، وله حالةٌ عظيمة، ورياضةٌ كثيرة. قال: اذهبوا بي إليه لأستكشفَ عن أحواله. فذهب إليه، ووقف عنده ثلاثةَ أيام، وراقب أحوالَه، فكانت أزيدَ ممّا سمعه وعلِمَهُ، كان لا ينامُ بالليل، ولا يستريحُ لحظةً، فحصلَ لإبراهيم غيرةٌ، لأنه لا ينامُ لحظةً من الليل، ولنا فتورٌ، ولكن قال: استكشفُ من حاله، هل للشيطانِ فيه مدخلٌ أم لا، أم كلّها إخلاصٌ؟ فتفحَّصَ من أساسِ هذا الشأن، وهو اللُّقمةُ، فوجدها من الحلال، قال: سبحان الله، هذا ليس من الشيطان. ثم قال له الشيخ: يا فتى، كنتُ ضيفَك ثلاثةَ أيام، أنت أيضًا شرّفْنا[1] أيامًا. وأتى به إلى منزله، وأطعمه من طعامه الذي يطعم، فقلَّتْ حالاته وشوقُه، ولم يبقَ من عشقه أثرٌ، وزالتْ حرارتُهُ وحدّتُهُ وسهرُهُ وبكاؤه، فقال لإبراهيم: ما صنعت معي؟ قال إبراهيم رضي الله عنه: طعامُكَ ما كان من وجهٍ حلالٍ، والشيطانُ كان يدخل فيك، وينزلُ في جوفك مع الطعام، وكان يُريك ما كنت فيه[2]، ولمّا أكلتَ الحلال، واستنارَ باطنُكَ، وضاق مدخلُه، هربَ منك.

قيل إنه قال لسفيان: إنك مُحتاجٌ إلى قليلٍ من اليقين، وإن كان لك علمٌ كثير.

وأيضًا قال له: من عرفَ ما يطلبه هان عليه ما يجده.

نقل أنه قال له شقيق البلخي: يا شيخ، لمَ تفرُّ عن الخلق؟ قال: أخذت دِيني، وأفرُّ من مدينةٍ إلى مدينة، ومن جبلٍ إلى جبل، من رآني يظنُّ أنّي مجنونٌ أو صاحبُ وسواس، ولا أفعل ذلك إلاّ رجاءَ أن يسلمَ إيماني من الشيطان، وأعبرَ مع الإيمان عن بابِ الموت.

---

(١) في (أ): آنت شرفتنا.

(٢) في (أ): وكان يريد ما كنت فيه.

ونقل أنه كان يحصدُ في رمضان الحشيشَ بالأجرة، ويصرفُها على الفقراء، ويقومُ الليلَ كلَّه بالصلاة، ولا ينام، فقيل له: يا شيخُ، لمَ لا تنام؟ قال: لأنّي لا أخلو من البكاء، وكيف في عيني للنوم مجال؟!

وحكي أنّه كلّما كان يصلي يقول: أخاف من أن تُردَّ صلاتي إلى وجهي.

نقل أنه لم يجدْ يومًا ما يتقوَّتُ به، قال: إلهي، أُصلّي شكرًا لك مئةَ ركعة. ففي اليوم الثاني أيضًا لم يجد شيئًا، فصلّى مئة ركعة شكرًا، وكذلك في اليوم الثالث إلى السابع، فضعفَ حينئذٍ، وقال: إلهي، لا طاقةَ للقوّة الجسمانية أكثر من هذا، فإن ترزقني شيئًا فهذا وقته. فجاء إليه شابٌّ، وقال: هل لك حاجةٌ إلى طعام؟ قال: فذهب به إلى بيته، فلمّا نظرَ الشابُّ إلى وجه الشيخ صاحَ وقال: يا شيخ، أنا مملوكٌ لك، وما في يدي مالُكَ وملكُكَ. قال إبراهيم: أعتقتُكَ لله تعالى، ووهبتُ منك ما في يدك. واستأذن منه، وخرجَ من بيته وقال: إلهي، طلبتُ منك كُسيرَة خبزٍ ولقمةً من طعامٍ، أعطيتني الدنيا، وعهدتُ لا أسألُ منك شيئًا بعد هذا.

ونقل عن سهل أنه قال: سافرت مع إبراهيم بن أدهم رحمه الله، فاتّجعتُ، فصرفَ عليّ ما كان معه، ثم سألتُ منه يومًا شيئًا اشتهاه قلبي، وكان له حمارٌ كنتُ أركبُه في الطريق، باعه وصرفَ ثمنه عليَّ، فلمّا طبتُ قلتُ: يا شيخ، أين الحمار؟ قال: بعتُهُ. قلتُ: وأنا كيف أَمشي؟ وليس لي طاقةُ المسير. قال: أَحَملُكَ على عنقي. فحملني ثلاث مراحل.

نقل عن عطاء السُّلمي أنه قال: ما بقيَ لإبراهيم شيءٌ يتقوَّتُ به، فصبرَ أربعين يومًا، وأكلَ في هذه الأيام الطينَ، ولم يذكرْ حالَه لأحدٍ.

ونقل أنه حجَّ مرّاتٍ ماشيًا، ولم يستقِ الماء من زمزم، قال: لأنَّ الدلو المُتدلّي فيها اشتراه بعضُ خدّام السلطان.

نقل أنه كان يؤجّرُ نفسه، ويعملُ إلى المساء، ويأخذُ أجرتَه ويصرفُها في نفقة أصحابه، وكانوا لا يطعمون شيئًا إلاّ بعد صلاة المغرب، قال أصحابُهُ في

بعض الأيام: وهو يَتعوّقُ[١]، نحن نتعشّى ولا نتركُ له شيئًا؛ حتى يجيءَ بعد اليوم بالعجلةِ ولا يتأخّر. فتعشّوا، وما أبقوا له شيئًا، فلمّا جاءَ صادفَ أصحابَهُ نيامًا، توهَّمَ أنهم ما طعموا شيئًا، وكان معه قليلٌ من الطحين، فأشعلَ نارًا، وأرادَ أن يطبخَ لهم شيئًا يطعمونه ليكون لهم قوَّةٌ على الصوم، فانتبهوا ورأوه مشغولاً بإشعال النار، وعيناه دامعة، وهو ينفخُ ويتعبُ نفسَه، قالوا: ماذا تعمل يا شيخ؟ قال: أطبخُ لكم طعامًا تأكلونه. فقالوا: سبحان الله، نحن ماذا فعلنا معَه حيثُ أكلنا، ولم نُبقِ له، وهو ماذا يفعل معنا!؟

نقل أنَّ من أرادَ الصُحبة معه، كان يشترطُ عليه أمورًا ثلاثة، الأول يخدمه هو لا الرفيق، وأن يكونَ المؤذن هو، وإن حصلَ له شيءٌ يكون بينهما.

نقل أن شخصًا ذا عيالٍ كان يذهبُ إلى بيته مساءً، ولم يحصل له شيءٌ ينفق عليه وعلى أهله وعياله، وكان مغمومًا محزونًا، فمرَّ في طريقه بإبراهيم رحمه الله، فالتقاه فارغ الخاطر، رخيَّ البال، فقال له ذلك الشخص: طُوبى لك يا إبراهيم، إذ ليس لك همٌّ ولا حزن. فقال إبراهيم: ما عملتُ من الطاعات والعبادات والحجِّ أُعطيكَ وأعطني أنتَ مالَكَ من الحزن.

ونقل أنّه صاحبَهُ شخصٌ مدّةً، ثم عند الارتحال قال له: يا شيخ، أخبرني بما رأيتَ فيَّ من العيب. قال له الشيخ: ما رأيتُ فيك شيئًا من العيب؛ لأنّي نظرت فيك بنظرِ الصداقة لا بنظرِ العداوة، فما وجدتُ فيك عيبًا؛ بل ما رأيتُ منك أعجبني كلُّه.

سأل منه المُعتصم: يا شيخ، هل تعرف صنعةً؟ قال: نعم، تركتُ الدنيا لطالبها، والعقبى لطالبِ العقبى، واخترت في الدُّنيا ذكرَ الله تعالى، وفي الآخرة لقاءه.

وسأل منه آخر عن صنعته، قال: ألا تعرفُ أن من يعملُ لله تعالى لا يحتاجُ إلى صنعة.

---

(١) وهو يتعوّق: وهو يتأخّر.

نقل أنه قال له شخص: يا بخيل. قال: نعم، تركتُ مُلك بلخٍ، واخترتُ الفقر، وأنت تقول إني بخيل.

نقل أنَّ مُزيّناً كان يُزيّنُ سباله، فعبر عليه هناك شخص من المريدين، قال له الشيخ: هل معك شيء؟ قال: نعم. ووضع عنده كيسًا من الذهب، فلمّا فرغَ المزينُ، أعطاه الشيخُ كيسَ الذهب، فجاء إلى المُزيّنِ سائلٌ، وأراد المُزيّنُ أن يُعطيه الكيسَ بتمامه، قال إبراهيم للمزين: فيه ذهب! قال المزين: علمتُ يا بخيل، الغنى غنى القلبِ لا غنى المال. فقال إبراهيم: ما استحييت قطُّ مثل ذلك اليوم، وما رأيت نفسي بمرادي إلاّ في ذلك اليوم.

قيل له: هل حصلَ لك سرورٌ مذ دخلتَ في الفقر، وسلكتَ هذا الطريق؟ قال: نعم مراتٍ:

مرةً كنت في سفينةٍ، وما كان يعرفني أحدٌ فيها، وكان عليَّ ثيابٌ خلقة، وطال شعر رأسي، وكان ركاب السفينة ينظرون إليَّ بالاستهزاء والتحقير، وكان فيها هزّالٌ، كان يُمسكُ كلَّ لحظةٍ بشعري، ويضحكون عليَّ، فحصل لي هناك فرحٌ وسرور، ووجدت نفسي حينئذ على مرادي، وفرحتُ بحقارتها، ثم اضطربتْ أمواجُ البحر، وكان الهلاك، وأرادَ الملاّحُ أن يطرحَ شخصًا في البحر ليُخِّفَ السفينة، فأمسكوني ليطرحوني في البحر، فسكنتِ الأمواجُ، واطمأنَّتِ السفينة، ففرحتُ أيضًا حين أرادوا أن يطرحوني في البحر، فسكنتِ الأمواجُ واطمأنّتِ السفينة.

ونوبةٌ أخرى وصلتُ إلى مسجدٍ لأبيتَ فيه، وقد جئتُ هناك من السفر، وكنت تعبان، ولي ضعفٌ عظيم بحيث ما كنتُ أقدرُ على الحركة، فلمّا صلينا العشاء، وأراد المؤذنُ الرَّواحَ إلى بيته، جاء إليَّ وأمرني بالخروج، وما كان لي طاقةٌ للخروج لكثرة الضعف، فأمسكَ برجلي، وجرّني إلى خارج المسجد، وكان للمسجد درجٌ، فانكسرَ رأسي في ثلاثةِ مواضع بسبب الوقوع على الدرج، وجرى الدم، ورأيتُ نفسي على مرادي، ولكن كلّما كنتُ أقعُ على

درجةٍ من درج المسجد كان ينكشفُ عليَّ سرُّ إقليم، فتمنّيتُ أن يكونَ الدرج أكثرَ ممّا كانت.

ونوبةً أخرى كنت في مكانٍ، وكان هناك رجلٌ هزَّالٌ، كان يضحكُ عليَّ، ويبول عليَّ.

ونوبةً أخرى كان لي فروةٌ عتيقة مقطّعة، وفيها قملٌ كثيرة يؤذونني، تذكّرتُ ثيابي في الخزانة، وما كان لي من التنعّمِ واللذة، فسُررتُ بالحالِ التي كنت فيها من الفقر.

قال: رأيت مُتوكّلاً، فقلت له: من أين تأكل؟ قال: ليس عندي هذا العلم، سلْ من الرزّاق، ما لي شغلٌ بهذا الفضول.

قيل: إنه اشترى غلامًا، قال: ما اسمك؟ قال: ما تدعوني به. قال: أيُّ شيءٍ تأكل؟ قال: ما تُطعمني أطعم. قال: ما تلبس؟ قال: ما تُعطيني ألبس. قال: وماذا شغلُك وعملك؟ قال: ترسمُ وتأمرُ أعمل بتوفيق الله. قال: أليس لك اختيار؟ قال: أنا عبدٌ، وما للعبد اختيار. فبكيتُ حتى غُشي عليَّ، وقلتُ لنفسي: تعلّمي العبودية من هذا العبد.

قيل: إنه ما كان يجلسُ على هيئة التربيع قطُّ، فسُئلَ عن ذلك، قال: كنتُ مرّةً جالسًا مربّعًا إذ سمعتُ صوتًا: يا بن أدهم، المماليك كذا يجلسون بين يدي سيِّدِهم؟! فتركتُ ذلك الجلوس، وعهدت أن لا أجلس على تلك الهيئة ما أعيش.

نقل أنه قيل له: أنت عبدٌ، فخرَّ على وجهه، وتقلّبَ على جنبيه، ثم قام، وقرأ هذه الآية: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فقيل له: لِمَ ما أجبت عن سؤال ذلك الشخص؟ قال: لأنّي خفتُ، لو قلتُ: عبد الله، فيقول: وأين القيامُ بحقوقِ العبودية؟ أو قلتُ: عبدٌ لغيره، لكان كفرًا، والعياذ بالله منه.

قيل له: كيف تمرُّ بك الأحوال؟ قال: هيَّأتُ مركب الصبر، فإذا لقيني

مكروهٌ أركبُ عليه وأستقبله، ومركبَ الإخلاص أركبُ عليه وأستقبلُ الطاعات.

[وقال]: لا تدع أهلَك أرامل، وعيالك يتامى، ولا تنام في الليالي على التراب، لا تظنَّ أنَّك تَنزلُ في صفِّ الرجال.

نقل أنه قصدَ نوبةً صحبةَ جماعة من الصوفية، فما تركوه بينهم، وقالوا: نشتمُّ منك نتنَ السلطنة بعد.

قيل: لِمَ حُجبتِ القلوبُ عن الله تعالى؟ قال: لأنَّها تُحبُّ ما أبغضَ الله، وتفرحُ بالاشتغال باللهو واللعب في هذه الدار الفانية، وترك الدار الباقية، والحياة الدائمة التي لا انقطاع لها ولا نقصان.

قال له شخص: أوصني. فقال: اذكرِ الله، واتركِ الخلق.

وقال شخص آخر: أوصني. فقال: افتحِ المشدود، وشدَّ المفتوح. قال ذلك الشخص: لا أعلمُ معنى هذا الكلام. قال: افتح الكيسَ المشدود، واشددِ اللِّسانَ المفتوح.

قال: أحمد بن خضرويه: صادفَ إبراهيم رجلاً في الطواف، وقال له: لا تنالُ درجاتِ الصالحين إلا أن تعبرَ عن ستِّ عقبات: أن تفتحَ عليك بابَ المحنة، وتغلقَ باب النعمة. وتغلقَ باب العزِّ، وتفتح باب الذلِّ. وتغلقَ باب النوم، وتفتحَ باب السهر. وتغلقَ باب الغنى، وتفتح باب الفقر. وتغلق باب الأمل[1] وتفتح باب الاستعداد للموت. وتغلق باب العلم، وتفتح باب الجهل.

نقل أنّه جاء إليه رجلٌ وقال: يا شيخ، إنّي ظلمتُ نفسي ظُلمًا كثيرًا، فعلّمني كلامًا أجعلُهُ أمامي. فقال له إبراهيم: أُعلّمُكَ خصالاً ستًّا، إن قبلتَها فما تعملُ بعدها لا يضرُّكَ:

الأولى إذا عمدتَ إلى معصيةٍ، فاخرجْ عن مُلك الله تعالى. قال الرجل: كيف يتيسَّرُ هذا؛ فإنَّ الدنيا من المشرقِ إلى المغرب، ومن الجنوبِ إلى

---

(١) في (ب): وتغلق باب الليل.

الشمال، ومن تحت الثرى إلى ما فوق العرش مُلكُ الله تعالى، فأين أَخرجُ من مُلكه؟ وإلى أين أذهب؟ قال الشيخ: تسكنُ في مُلكه وتعصيه!

الثانية: إذا هممتَ بمعصيةٍ فلا تطلب منه الرزق. قال الرجل: هذا كيف يُتصوَّرُ؟ فإنَّ مَنْ في العالم العلوي والسُّفلي يأكلُ مِنْ رزقِهِ، ويتمتَّعُ بإحسانه وإنعامه. قال: تأكلُ ما يرزقك وتعصيه!

الثالثة: إذا قصدت عصيانَه، فاجتهد أن لا يراك الله، ولا ينظرَ إليك. قال الرجل: كيف؟ ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ويعلم همسات الضمائر، وسرائر الصدور، ويرى دبيبَ النملةِ السوداء على الصَّخرة الصمّاءِ في الليلة الظلماء. قال الشيخ: تسكنُ في مُلكه، وتأكل من إنعامه وإحسانه وتعصيه بحضرته!

الرابعة: إذا جاء إليك مَلكُ الموت ليقبضَ روحك، فاستمهلْ منه طرفةَ العين للتوبة. قال الشخص: ومتى يقبل مني؟ قال: إذا لم تقدرْ على أن تدفعَ مَلَكَ الموتِ عنك لحظةً لتتوبَ، فتبْ قبل أن يَجيء إليك، ويضيِّقَ الحالَ عليك، واغتنم الفرصةَ في هذه الساعة وتب.

الخامسة: إذا نزلتْ وجاءَ إليك مُنكرٌ ونكير، فادفعهما عنك. قال: لا أقدرُ على ذلك. قال: فتهيَّأْ للجواب اليوم.

السادسة: إذا نادى منادٍ يومَ القيامة: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] والفرضُ أنّك وقعتَ في فريقِ السعير، لا تمش معهم. قال: كيف أقدر على ذلك؟ وتاب في الحال، ودام عليها إلى أن توفّي، رزقنا الله توبةً نصوحًا.

نقل أنه قيل له: ما السببُ في أنّا ندعو الله تعالى، ولا يُستجابُ لنا؟ قال: إنكم تعرفونه، ولا تطيعونه[1]، وتعلمون أنّه جاءَ إليكم رسولُهُ، فتعرفونه ولا تتبعونه. وتقرؤون القرآن، ولا تعملون به، وتعلمون أنَّ الجنةَ مزيَّنَةٌ

(١) في (أ): إنكم تعرفون أن الله حق، وكلامه صادق، ورسوله أمين.

للمُطيعين، ولا تطلبونها. وتعلمون أنَّ النار مهيَّأةٌ للعصاة بأنواعِ العذاب والأغلال، ولا تجتنبون عنها. وتعلمون أنَّ الشيطان لكم عدوٌّ، ولا تخاصمون معه؛ بل تحبُّونهَ وتطيعونه. وتعلمون أنّكم تموتون، ولا تستعدُّون للموت، وتدفنون الوالدَيْنِ والأولاد في التراب ولا تعتبرون، ولا تتبرَّؤون من عيوبكم، وتنظرون إلى عيوبِ غيركم، من يكون حالُه كذلك كيف تُستجابُ له دعوته؟

نقل أنه قيل له: إذا جاعَ شخصٌ، ولم يجدْ شيئًا، كيف يصنع؟ قال: يصبرُ يومًا يومين ثلاثة أربعة خمسة إلى عشرة[1]، بل إلى شهر. قيل: فلا يسأل عن أحد؟ قال: يصبرُ حتى يموتَ، لتكون ديتُهُ على قاتله.

قيل في مجلسه: غلا سعر اللحم في المدينة. قال: فنحن نُرخصُهُ. قيل: كيف؟ قال: لا نطمعُ في أكله.

نقل أنه حضر في ضيافةٍ، وكان أهلُ الضيافة يترقَّبون شخصًا، فقال بعضُهم: هو رجلٌ ثقيل. فقال إبراهيم: هذا من العجب، الناسُ يأكلون اللحمَ بعد الخبز، وأنتم أكلتُمُ اللحم قبل الخبز.

أقول: لأنَّهم اغتابوا ذلك الشخص؛ فإنَّ واحدًا منهم قال: هو ثقيل، وسكت الباقون، والساكتُ أحدُ المغتابين، وقد قال الله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] **والله أعلم.**

نقل أنه قصدَ الحمام، فمنعه الحمَّاميُّ، لأن ثيابَهُ كانت خلقة، وهو كان فقيرًا، ولم يكن معه شيءٌ، فحصل له عند ذلك حال، وقال: تمنعون صاحبَ اليدِ الخالية عن الدخول في بيت الجن، فكيف لا تمنعون الشخصَ بغيرِ الطاعة عن بيت الرحمن.

نقل عنه أنه قال: دخلتُ الباديةَ متوكِّلاً على قصدِ الكعبة، فمشيتُ ثلاثة أيام، وما وجدتُ شيئًا، ثم جاء الشيطانُ إليَّ، ووسوسني، وقال: تركتَ السلطنةَ والنعمةَ الكثيرة، ثم تقصدُ الحجَّ جائعًا، وما معك شيءٌ، والناس مع

---

(١) في (ب): يومين، ثلاثة أيام، أو أربعة، وخمسة إلى عشرة.

تحمّل ومالٍ كثيرٍ لا يقدرون على قطع هذه البادية، فأنت كيف تقدرُ؟ فانتبهتُ من فعله، وناديتُ اللهَ تعالى، وقلت: إلهي، أَحلْتَ عليَّ العدوَّ يُشوّشُ عليَّ حالي[١]، وأنا لا أقدر على قطعِ هذه البادية إلاّ بمددك وتوفيقك. فسمعت صوتًا: يا إبراهيم، اطرحْ ما في الجيب، لندفع عنك ما في الغيب. فأدخلتُ يدي في جيبي، فإذا فيه أربعةُ دوانيق من الفضّة قد نسيتُها فيه، فأخرجتُها ورميتها، ونجّاني الله تعالى من إبليس عليه اللعنة، وحصلتْ لي قوةٌ من الغيب.

نقل عنه أنه قال: كنتُ جائعًا في أيام، وما وجدتُ شيئًا أسدُّ به جوعتي، فقصدتُ التقاط السنابل من الأرض بعد الحصاد، فكلّما كنتُ أرفعُ سنبلةً، كان الناس يأخذون منّي ويضربونني، إلى أربعين سنبلة، ولمّا أخذتُ سنبلةً أُخرى بعد الأربعين تركوها في يدي، ولم يَتعرّضْ أحدٌ، ثم سمعت صوتًا: يا إبراهيم، هذه الأربعون في مقابلةِ الأربعين دبوسًا من الذهب، التي إذا كنتَ تركبُ في أيام سلطنتك[٢] قد كانت يذهب بك قدامك وخلفك.

نقل أنه قال: كنت حافظًا على بستانٍ، فجاء في بعض الأيام صاحبُ البستان، وطلب منّي الرمان الحلو، فأتيته بالرُّمان، وكان حامضًا، فطلبَ الرُّمان الحلو، فأتيته طبقًا آخر من الرمان، وكان حامضًا، فقال مالكُ البستان: كم زمان أنت في هذا البستان، ولا تميِّزُ بين حلوِ الرُّمان وحامضه؟ قلت: أنا حافظٌ للبستان لا آكلٌ للرمان حتى أعرفَ الحامضَ من الحلو. فقال صاحب البستان: مع هذا الزهد، أنت إبراهيم بن أدهم! فتركتُ البستان، ومضيت.

نقل أنه قال: رأيتُ جبريل عليه السلام في المنام أنّه نزلَ من السماء، وبيده صحيفةٌ، وقال: أريدُ أن أكتبَ أسماءَ فقراء الله تعالى. قلتُ: هل تكتبُ اسمي؟ قال: لا؛ لأنَّكَ لست منهم. فتفكّرَ ساعةً، ثم قال: وردَ الأمرُ بأن أكتبَ اسمَكَ في صدر الكتاب، لأنَّ الرجاءَ في هذه الطريق يحصلُ من ترك الرجاء.

---

(١) في (أ): على العدو شوّشني على حالي.

(٢) في (أ): من الذهب التي تركت في أيام سلطنتك.

نقل أنه قال: كنتُ في بعض الأيام في مسجدِ بيت المقدس، ولففتُ نفسي في باريةٍ[١]، واختفيت في زاويةٍ من المسجد خوفًا من أن يُخرجني المؤذّنُ، لأنَّهم ما كانوا يتركون شخصًا يبيتُ فيه، فلمّا مضى قليلٌ من الليل، انفتح الباب، ودخل جماعةٌ لابسون الكساءات، وتقدَّمهم شيخٌ، وهو أيضًا لابسٌ كساء، فعبر إلى المحراب، وصلّى ركعتين، ثم استدبرَ القبلةَ واستقبلهم، فقال واحد منهم: في المسجد الليلةَ شخصٌ هو ليس منّا. فتبسَّمَ الشيخُ وقال: نعم، هو إبراهيم بن أدهم، وما وجدَ حلاوةَ العبادة منذ أربعين يومًا. فلمّا سمعتُ هذا الحديث، طلعتُ من البارية، وذهبتُ إليهم، وسلّمتُ عليهم، وقلت: علامةٌ صحيحةٌ، وما سبب ذلك؟ قال: لأنَّكَ اشتريتَ في البصرة تمرًا في اليوم الفلاني، ووجدتَ تمرةً بين تمرك الذي اشتريت من تمرِ البائع، وظننتَ أنَّها لك من جملة تمرك. قال: فذهبتُ إلى البصرة، واستحللتُ التمرةَ من ذلك البائع، وتابَ ذلك الرجلُ من بيعِ التمر، وتركَ الدُّكانَ والمعاملة، واشتغلَ بعبادة الله تعالى، وصار من الأبدال.

نقل أنه كان في صحراء، فاستقبله شخصٌ من الأجناد، وقال: من أنت؟ قال: عبد. قال: العمارة في أيِّ ناحيةٍ؟ فأشارَ إلى المقابر، فاغتاظ الجنديُّ وقال: تهزأُ بي. وأخذَ يضربُهُ بالمقرعة حتى شجَّ رأسَه، والدمُ يجري، ثم قلّد في رقبته حبلاً يجرُّه إلى المدينة، فاستقبله جماعةٌ من أهل المدينة، وذمُّوا الجنديَّ ووبَّخوه، وقالوا: يا جاهل، أما تعرفه!؟ هذا هو إبراهيم بن أدهم أحدُ أولياء الله تعالى، والناسُ طلعوا من المدينة استقبالاً له. فندم الجنديُّ، وأخذَ يعتذرُ، ويقبّلُ يديه ورجليه، ويتمرَّغُ على التراب لديه، وقال: يا شيخ، لمَّا سألتُ من أنتَ، قلتَ عبدٌ. قال إبراهيم: من الذي ليس بعبد. قال: لمّا كسرتُ رأسَك، كنتَ تدعو لي بالرَّحمة؟ قال إبراهيم: نعم، لأنّكَ بالتعدّي عليَّ صرتَ سببًا لأن يرحمني الله، وأنا أيضًا دعوتُ اللهَ تعالى ليرحمك، لئلا تضيعَ

(١) في بارية: في حصيرة.

معاملتُكَ معي، ولا يصيرَ نصيبُكَ من هذا العمل النار. قال: لِمَ أشرتَ إلى القبور؟ قال: لأنَّ أهلَ القبور يَزيدون كلَّ يومٍ، وأهلَ المدينة ينتقصون، فتكون العمارةُ في المقابر.

رأى شخصٌ من أولياء الله تعالى الجنَّةَ في المنام، وصادف أهل الجنة قد ملؤوا أردانهم وأرديتهم من اللآلىء والجواهر، فسأل عن هذا الحال، فقالوا: لأنَّ جاهلاً شجَّ رأسَ إبراهيم بن أدهم، ولمّا أدخلَهُ اللهُ الجنة، أمرَ اللهُ تعالى بأن ننثرَ عليه اللآلىء والجواهر، فملأنا أردانَنا وأَرديتنا منها.

نقل أنه رأى رجلاً سكران مُلطّخًا فمه بالخمر، فأتى إبراهيمُ بماءٍ، وغسلَ فمه، وقال: الفم الذي يذكرُ اللهَ تعالى، لا يجوزُ أن يُترك نجسًا. فلمّا صحا السكران، قيل له: زاهدُ خراسان غسلَ فمَك. قال الرجل: فأنا أيضًا تبتُ إلى الله تعالى، ورجعتُ. ثم رأى إبراهيمُ في المنام قد قيلَ له: أنتَ لأجلِنا وتعظيمنا غسلتَ فمه، فنحن لأجلِكَ غسّلناه وطهَّرْنا قلبه.

نقل عن شخصٍ من أكابر المشايخ، أنه قال: كنتُ يومًا مع إبراهيم بن أدهم في بيتِ المقدس، فاستظللنا تحت شجرةِ رمان كانتْ هناك وقتَ القيلولة، وصلّينا ركعاتٍ من الصلاة، فسمعنا صوتًا من الشجرة: يا أبا إسحاق ـ يعني يا إبراهيم بن أدهم ـ أكرمني، وتناولْ من رمّاني. فأطرقَ إبراهيمُ رأسَه حتى سمعنا ثلاث مرات. ثم قالتِ الشجرةُ: يا مُحمد ـ وكان اسمُ هذا الرجل محمدًا ـ اشفعْ عنده ليأكلَ من رمّاني. قلت: يا أبا إسحاق، تسمعُ؟ قال: نعم. فقامَ وقطفَ منها رمّانتين، وأكل أحديهما، وأعطاني الأخرى، وكانت الشجرةُ قصيرةً، ورمّانُها حامضًا، فلمّا رجعتُ إليها بعد زمانٍ، فإذا هي مرتفعةٌ، وصارَ رمّانُها حلوًا ببركة إبراهيم، وكانت تحملُ كلَّ سنةٍ مرّتين، وسماها الناسُ: رمانة العابدين، لكثرة جلوس العابدين في ظلّها، ببركة إبراهيم أيضًا.

نقل أنّه كان جالسًا على جبلٍ مع جماعةٍ من أكابرِ الدِّين، فسأله واحدٌ منهم، وقال: يا شيخ، ما علامةُ الكمال في الولي؟ قال: علامتُهُ هو أنّه إذا قال للجبلِ اذهبْ من مكانك، لذهبَ. فشرعَ الجبلُ الذي هو عليه يذهب، فقال الشيخ:

اسكنْ؛ فإنّي ما قلتُ لك اذهب، ولكنْ ضربتُ المثل بك.

نقل عن شخصٍ من أكابر المشايخ أنه قال: كنتُ مع إبراهيمَ في سفينةٍ، إذْ هبَّتْ رياح مختلفةٌ، واضطربتْ أمواجُ البحر، وأظلمتِ الدنيا، قلت: آه، غرقتِ السفينةُ. فسمعتُ صوتًا: يُقالُ إبراهيمُ في السفينة، وأنتم تخافون من الغرق؟ فانكشفَ الغيمُ، وسكنتِ الرياح، واستضاءت الدنيا.

نقل أنه كان مرةً أُخرى في سفينةٍ، فاضطربتِ الأمواجُ، وهاجت الرياحُ، وكادتِ السفينة أن تغرقَ، وكان في السفينة مصحفٌ، فأخذه إبراهيمُ، وقال: إلهي، تُغرقنا وبيننا كتابك؟! فسمعوا صوتًا: يُقال لا أفعل. وسكنتِ الأمواج والرياح.

نقل أنه قصدَ الجلوسُ في سفينةٍ، والملاحُ أراد منه الأجرةَ، ولم يكن له شيءٌ من الدينار والدرهم، فقال: إلهي، يطلبون منّي شيئًا، وما أجد. فنظرَ في الساحل، فرأى أنّه صارتِ الحصى كلُّها ذهبًا، فأخذ حفنةً، وأعطى الملاح.

نقل أنه كان في ساحلِ البحر في جدّة يخيطُ خرقتَهُ ويرفوها، فوقعت إبرةٌ في البحر، فأشار إلى سمكِ البحر بردِّ إبرته، فأطلعتْ ألفُ سمكةٍ رأسَها من البحر، وأخذ كلٌّ بفمه إبرةً من الذهب، قال: لا أُريد إلاّ إبرتي. فطلعَتْ سمكةٌ ضعيفة، وجاءت بإبرته، ثم قال: أقلُّ شيءٍ وجدتُ بتركِ مُلكِ بلخٍ هو هذا، والباقي ما أريده.

نقل أنه أدلى دلوًا في بئرٍ ليستقي ماءً، فخرج الدلو مملوءًا من الفضة، فقلبه في البئر، وأدلى ثانيًا، فطلع مملوءًا من الذهب، فقلبه، وأدلى ثالثًا، فطلع مملوءًا من اللآلىء، فقلبه أيضًا، وطاب وقتُه، وقال: إلهي، تُعرضُ عليَّ خزائنك، أنا عالمٌ مُوقن بأنك قادر على ما تُريد، وأنت تعلمُ بأني ما أنخدعُ بأمثالِ هذا، وأطلب الماء للطهارة، فأعطني الماء.

نقل أنه كان يمشي إلى الحجاز في جماعةٍ، فقال أصحابُه: ليس مع واحدٍ منّا زادٌ ولا راحلة. فقال إبراهيم: أنتم إذا تيقّنتم أنَّ اللهَ تعالى رازق، ثم إذا

نظرتم إلى هذه الشجرة، فإن تطمعوا أن تصير ذهبًا، تصير ذهبًا، نظروا إلى أشجار أم غيلان[١] في البادية، فإذا صارت ذهبًا بقدرةِ الله تعالى.

نقل أنه مع أصحابٍ له كان في سفرٍ، فوصلوا إلى كهفٍ، وكان هناك حطبٌ كثير، قالوا: نبيتُ هنا، ونلهبُ نارًا. ففعلوا واستضاؤوا بضوئها، وشرعوا يأكلون الخبزَ اليابس الذي كان معهم، وإبراهيم رحمه الله كان مشغولاً بالصلاة، فقال بعضهم: ليتَ لنا لحمًا حلالاً نشويه على هذه النار. فسلّم إبراهيم رحمه الله، وقال: إن الله تعالى قادرٌ على أن يرزقَكُم هنا لحمًا حلالاً. فقال هذا، واشتغلَ بالصلاة، فسمعوا صياح أسدٍ، يصيحُ ويجيءُ إليهم، ويسوقُ حمارًا وحشيًّا، فأمسكوا الحمار، وذبحوه وشووه، والأسدُ ينظر إليهم.

نقل أنّه لمّا انقضى أجلُه، وتمَّ عمرُهُ غابَ عن الناس، ولا يُعرف مكانُ قبره يقينًا، حتى قيل: إنه ببغداد، وقيل: بالشام، وقيل بجنب لوط النبيِّ عليه السلام، وقيل: كانت له صومعة محفورةٌ في الأرض، وتوفّي هناك.

نقل أنّه لما حان وفاتُه، وتوفّي إلى رحمة الله تعالى، سمعوا صوتًا: ألا إنَّ أمانَ الأرض قد مات. وتحيّر الناسُ عن هذا الصوت، حتى سمعوا: أنّ إبراهيم بن أدهم قدس الله روحه توفّي إلى رحمة الله تعالى ورضوانه.

ونسأل اللهَ تعالى الوهّابَ الملك التّوابَ أن يتوبَ علينا بمنّهِ، وينظرَ إلينا نظرَ الرحمة والعناية، ولا يخلّي عنّا الكفايةَ والهداية، ويجنّبنا عن موافقةِ النفس، ومتابعة الشيطان في البداية والنهاية، ويحفظَنا عن الضلالة والغواية إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، نعم المولى هو ونعم النصير، والله أعلم.

* * *

(١) أم غيلان: شجر السَّمُر. القاموس.